الاشتغال بتدريس التفسير في النشاط العلمي للمفسرين الجزائريين

Enseigner l'interprétation dans l'activité scientifique des interprètes algériens

بلحاج جلول
جامعة أبو بكر بلقايد - تلمسان-
Djelloulogbi46@hotmail.com

الملخص:

شغل تدريس التفسير ولا يزال هامشا واسعا وأساسيا في النشاط المعرفي للمفسرين الجزائريين، إذ إضافة إلى تدريس سائر المواد الشرعية وما يتعلق بها من علوم الآلة، وأيضا التأليف في التفسير وغيره، نجد الحرص مستمرا على ختم دروس التفسير بالمساجد والمدارس والزوايا والمعاهد ومجالس السلطان...ووفق مقررات مغربية أو مشرقية، وكثيرا ما لا يلتزم المفسر مقررا واحدا بعينه. وقد أخذ تدريس التفسير في الاعتبار مستوى الشرائح المستقبلة فكان منه ما هو للطبقة العليا من طلبة العلم، وكان منه أيضا ما هو موجه لعموم القراء العاديين في الصحف والإذاعات...وهذا المقال يحاول أن يرصد قدرا كبير منها من أيام الشريف التلمساني في القرن الثامن الهجري مع الإشارة إلى بعض الجهود المعاصرة؛ للدلالة على أن هذا النشاط بدأ مبكرا ولم ينقطع إلى حد الساعة مع تسجيل اختلاف درجات استحقاق مرتبة المفسر، ومستويات أداء التفسير.

الكلمات المفتاحية: تدريس، تفسير، الجزائر، المسجد، المدرسة، المقررات.

Abstract:

The teaching of interpretation has been and remains a broad and fundamental margin in the cognitive activity of Algerian interpreters, in addition to teaching all the other legal and related sciences of the machine, as well as the authorship in the interpretation and others, we find constant concern to seal the lessons of interpretation in the mosques, schools, angles, institutes and councils of the Sultan. ..According to Moroccan or oriental decisions, the interpreter often does not adhere to one particular decision. The teaching of the interpretation took into consideration the level of the receiving classes, which was the upper class of science students, and it was also directed to the general public of ordinary readers in newspapers and radio stations ... This article tries to monitor a large number of the days of Sharif Tlemceni in the eighth century AH with reference to some of the efforts of contemporary; to indicate that this activity began early and did not stop to the point with the recording of different degrees of maturity of the interpreter and the levels of interpretation performance.

Keywords: teaching, interpretation, Algeria, mosque, school, courses.

تمهيد

الأصل في التفسير أنه بدأ شفهيا حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يبين للناس ما نزل إليهم، مرة جوابا على سؤال يطرح بخصوص آية، ومرة ثانية يأتي ذلك تعليقا على فهم لآية على غير وجهها (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)[لقمان: 13]، وأكثر ذلك كان التفسير يأتي ابتداء دون سابق سؤال أو حادثة، وفي مناسبات متكررة كخطبه عليه السلام في الجمُعات والأعياد والحروب...وقد كانت أحاديثه القولية كلُّها، وسيرتُه العملية تفسيرا كاملا لأكثر ما يحتاج إلى تفسيره. إذ كان التدوين مقتصرا على نص القرآن، وشيء من الحديث. وفي تفسير قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)[الْقَلَم: 4]، قَالَ عَطِيَّة الْعَوْفِيّ: أدبُ الْقُرْآن، وقَالَت عَائِشَة: كَانَ خلقه الْقُرْآن"[1].

وفي زمن الصحابة الكرام استقر الأمر على ما هو عليه إذ حفظوا ما تعلموه من التفسير، وتوسعوا بالاجتهاد فيما لم يسمعوه من التفسير النبوي مباشرة. ولا يوجد شيء مدون عنهم تدوينا تاما على أنه تفسير غير ما ينسب إلى عبد الله بن عباس بعنوان **المقْباس من تفسير ابن عباس**، وهو عمل وصل مبكرا إلى الأندلس مرورا بالمغرب، كما سنشير إليه في محلّه. غير أنه وفي عهد التابعين تواصل عمل العالِمين بالتفسير منهم في درس التفسير، لكن جمعا منهم أخذ يدون ما اجتمع له من ذلك. وفي النص التالي ما يفيد شيئا من البيان " تاريخ التفسير شفهيا وكتابيا: فعلى ضوء مصادر التفاسير السالفة البيان يتضح لنا جليا أن تفسير القرآن الكريم قد تدرج تاريخيا في مرحلتين اثنتين: مرحلة المشافهة، ومرحلة التدوين. فأما المرحلة الأولى: فقد بدأت بتفسير الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن شفهيا بمجرد نزوله وبأمر من ربه. وذلك واضح جدا في قوله تعالى (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)[النحل: 44]. وقوله تعالى (وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[النحل: 64]. فهاتين الآيتين وأمثالهما قد أوجب الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم تفسير ما استعصى فهمه على الناس من القرآن، وألزمه بتبيين مبهم آياته التشريعية، وإيضاح معاني ألفاظه وجمله، وتفصيل مجمله، وحل مشكله. وهذا كلّه قد كان منه صلى الله عليه وسلم إلى الصحابة شفهيا، فاستقر في صدورهم ورسخ في أذهانهم، وتناقله بعضهم عن بعض بطريق الرواية، ثم تناقله عنهم التابعون بأمانة النقل وتثبت العلم."[2].

وقد كان أكثر إنتاج التابعين في التفسير مفقودا، لا يكاد يوجد إلا أقوالا من أجزاء التفسير في القرون الموالية كما عند الطبري (310هـ) بالخصوص، ولكن الدراسات الجامعية الحديثة كشفت عن كثير من الأعمال المستقلة لأصحابها من التابعين، وقد طبع كثير منها، ويعتقد أن ما لم يطبع يمثل كما كبيرا أيضا " إن جامعات كثيرة بالعالم الإسلامي، اهتمت ولا تزال بجمع تفاسير كثير من أعلام التابعين وتابعيهم نعلم ببعضها دون الآخر مع الأسف الشديد لغياب التنسيق والتواصل؛ كتفسير كعب الأحبار (32هـ)، وتفسير مسروق (63هـ)، وتفسير أبي مالك الغفاري (90هـ)، وتفسير أبي العالية الرياحي (93هـ)، وتفسير جابر بن زيد (93هـ)، وتفسير سعيد بن المسيب (94هـ)، وتفسير سعيد بن جبير (95هـ)، وتفسير إبراهيم النخعي (96هـ)، وتفسير الضحاك (100هـ)، وتفسير الحسن البصري (100هـ)، وتفسير مجاهد بن جبر (104هـ)، وتفسير عكرمة (105هـ)، وتفسير طاوس بن كيسان (106هـ)، وتفسير ابن سيرين (110هـ)، وتفسير عطاء بن أبي رباح (115هـ)، وتفسير محمد بن كعب القرظي (117هـ)، وتفسير قتادة (118هـ)، وتفسير زيد بن أسلم (136هـ)، وتفسير ابن جريج (150هـ)، وتفسير عطاء الخرساني (155هـ)، وتفسير مالك بن أنس (179هـ)..."[3].

وهذا النص ذكرته للدلالة على وفرة الإنتاج العلمي في التفسير ومنذ وقت مبكر بين يدي العلماء والباحثين والطلبة، وهو ما يشجع على استمرار الدرس والتحصيل. ومع هذا فلم ينقطع التفسير الشفهي بل ظل هو الأصلَ في الحركة العلمية، والأكثرَ شيوعا في الأوساط الثقافية؛ لكون الكثرة من العلماء تجيد التفسير بالتدريس، وقد لا تتوفر على دواعي التأليف، وقد لا يصلُ إلى الأجيال ما تمُّ إنتاجه من التفاسير على اتساع البلدان، وتعاقب الأزمان.

بل وإنه وفي بعض الأزمنة وفي كثير من مجالس العلم هجرت كثيرٌ من مقررات التدريس من التفاسير المشهورة، واقتصر على تدريس تفسير واحد مشهور، كأنوار التنزويل للبيضاوي في العصور المتأخرة، وكان قد سبقه الكشاف للزمخشري...على ما يأتي التمثيل له.

إن الحديث حول ظاهرة الاشتغال بالتفسير سواء تعلق الأمر بالدرس والتحصيل، أو بالتدريس والتعليم، أخذ مبكرا شكل الحلقات الخاصة للطبقة العليا من الطلاب، كما كان يحصل في المجالس العامة كالمساجد والزوايا في ولقت لاحق لجمهور المؤمنين، في نص للمالكي يؤكد فيه ما كان لعكرمة الإفريقي[4]، تلميذ عبد الله بن عباس من جهد مستمر في تعليم التفسير، ففي بعض المصادر " وكانت دروسه في التفسير في جامع عقبة."[5]. ويدلّ أيضا على قِدم نشاط التفسير الشفهي بالمغرب عموما، إذ كانت القيروان قاعدتَه، ومن قبله وردَ المغربَ ابنُ عباس وابنُ عمر في جماعة وهم ممن يتقنون التفسير.

وبالإنتقال إلى المفسرين الجزائريين أورَدَ الحفناوي في تعريف الخلف النص التالي في ترجمة أحمد بن معمر البجائي فقد قال: " وكان رحمه الله له مجلسان في العلم: مجلس في الحديث، ومجلس في التفسير، إلا أن التفسير يقرِئُه بعد صلاة الجمعة على المنبر؛ لكثرة الناس وازدحامهم عليه إلى يوم موته."[6]. وهذا النص يدلّ على أن حركة تدريس التفسير لم تزل مستمرة، وأنها كانت موجهة لجمهور المؤمنين أيضا، وهو واضح في أن درجات العَرْض كانت تأخذ في الاعتبار المستويات المتوسطة للشرائح الاجتماعية العامة.

أولا - حلقات درس التفسير.

استمر تقليد تدريس التفسير بداية من أحمد المسيلي، إلى سعيد العقباني، وابن زاغو، وابن مرزوق الحفيد، إلى يحي الشاوي ثم إلى الشيخ ابن باديس وإبراهيم بيوض...وكثيرا ما صاحبَه منحُ الإجازات وختمُ مقررات التفسير، وسيأتي أن للعالم ابن زاغو رسالة بعنوان " ختم التفسير".

وذكر القلصادي الأندلسي أنه حلّ تلمسانَ في رحلته، وقد أشاد بمن فيها من الأعيان العلمية، حيث قال:" وأدركت فيها كثيرا من العلماء والصلحاء والعُبّاد والزهاد، وسوقُ العلم حينئذ نافقةٌ، وتجارة المتعلمين والمعلمين رابحة، والهمم إلى تحصيله مشرفة، وإلى الجدّ والاجتهاد فيه مرتقية، فأخذتُ فيها بالاشتغال بالعلم على أكثر الأعيان المشهود لهم بالفصاحة والبيان"[7]، وأن من بين هؤلاء الإمام ابن زاغُو (845هـ/1441م)، فقد قال عنه " ولازمته في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية للتفسير."[8]. وهذا النص يفيدنا أن درس التفسير بالمدرسة المذكورة كان عاما، يحضره كبار الطلبة إضافة إلى جمهور المؤمنين، فقد كانت خدمةُ التفسير متاحة للجميع في المدارس أيضا.

وممن استفاد منهم القلصادي الأندلسي أيضا الشيخ محمد بن النجار فقد قال بعد أن وصفه بما يستحقه من نعوت الجلال والفضل:" وحضرت عليه بعضَ تفسير الكتاب العزيز.[9]. وهو وواضح أيضا في أن درس التفسير كان موجودا ومستمرا وبشكل واسع. وفي الضوء اللامع عرض لهذا الأمر في شأن القلصادي دائما، وبشكل موسع أيضا " ثم إلى تلمسان سنة أربعين فوجد أبا الفضل المشدَّالي هناك فرافقه في الاشتغال فلازم الشيخ أحمد بن زاغو - بزاي وغين معجمتين - وقاسما العقباني - بضم المهملة وسكون القاف ثم موحدة - ومحمد بن مرزوق، فدرس عليه في التفسير والحديث والفرائض والنحو، وعلى العقباني في التفسير والحديث والفقه والأصلين، وعلى ابن زاغو في التفسير.."[10].

وفيه زيادة على ما في كتاب الرحلة للقلصادي المذكور أن أبا الفضل قاسما العقباني كان ممن يشتغل بتدريس التفسير، وأن القلصادي على تقدمه في الطلب كان يحضرُ مجلسَه، وإن لم يبلغنا أن قاسما العقباني ترك في التفسير عملا مدونا.

ولو انتقلتُ إلى من اشتغل بتدريس التفسير لكان مجال القول فيه ذا سعة بداية من سعيد العقباني إلى ابن باديس، ولنعد إلى القلصادي فقد أفاد أن ابن زاغو كان يقيم حلقات في التفسير بالمدرسة اليعقوبية فقد قال:" ولازمته في الحضور مع الجمهور في المدرسة اليعقوبية للتفسير..."[11]. وكان ليحي الشريف ولقاسم العقباني وغير هؤلاء اشتغالٌ بالتدريس تجاوز حلقات المسجد، والمدرسة ليشمل مجالسَ الأمراء، فقد أورد في تعريف الخلف عن عبد القادر الراشدي أن له" تفسيرَ عدة آيات وقعت بمجالس صالح باي."[12].

وهذا كان موجودا زمن الإمام السنوسي كما في المواهب القدسية، وإن كان السنوسي قد اعتذر عن حضور مجلس السلطان، فقد قال الملالي: " وكان رضي الله تعالى عنه لما شرع في التفسير بعث له السلطان رسولا طلب منه أن يطلع إليه، ويقرأ التفسير بحضرته كما يطلُع غيرُه من المدرسين، فامتنع رضي الله تعالى عنه الطلوع إلى السلطان."[13]، وهو أمر حدثَ لمحمد بن العباس أيضا (871هـ/1465م). وكلّ من الخبرين يدلان على أن قراءة التفسير كانت تقليدا متبعا في أماكن متعددة من المدرسة إلى المسجد إلى مجالس السلاطين. وإذا انتقلنا إلى العصر الحديث وجدنا الشيخ ابن باديس والشيخ بيوض يشتغل كل منهما بالتفسير بمسجده وبمحضر من الطلبة وجمهور المؤمنين.

وفي ترجمة يحي الشاوي (1096هـ/1685م) تجد أيضا عن بعض تلامذته بالمشرق " فقرأنا تفسير سورة الفاتحة من البيضاوي مع حاشية العصام."[14]. ويبدو أنه كان تقليدا سائدا وعملا يستحق الاهتمام والإشادة. كما نجد أيضا هذا النص هو والذي قبله يقعان خارجا عن القرن التاسع الهجري" وحضر عند الفقيه المفسر المتفنن النّوازلي أبي مروان عبد المالك البُرْجي في التفسير وغيره."[15]. غير أنهما ينتميان إلى الفترة المحددة لموضوع البحث.

ثانيا- عرض من عرفوا بتدريس التفسير.

الغرض هنا استعراض طائفة ممن اشتهروا بتدريس التفسير بالمدارس وهو الغالب أو بالمساجد، أو بالزوايا ومجالس السلطان، وسأترك من درَّسوا موادَّ التفسير بالجامعات وربما الثانويات ومعاهد تكوين الأئمة، والصحف والإذاعات، وصفحات الإنترنت...كاستمرار لهذه الحركة العلمية إلى موعد لاحق. وإن كانت الإضافة هنا تتعلق بحركة التفسير لا باستحقاق درجة المفسر بالمعايير التقليدية، والتي من أهمها القدرة على التأليف العلمي.

وأشير هنا أن التدريس المذكور قد كان صلبه في الجزائر، ووجد من المفسرين الجزائريين من اشتغلوا بتدريس التفسير في المدارس والمساجد والنوادي، والصحف والإذاعات خارج الجزائر، سواء بالمشرق أو بالمغرب. ومنهم من جمع إلى تدريس التفسير تدريس فنون أخرى كالمشدالي، والتقي الشُمُنّي، ويحي الشاوي، وعيسى الثعالبي...

وأذكر هنا أيضا شخصية قبل القرن التاسع والغرض أن تدريس التفسير قد استمر ومنذ وقت مبكر، شرقا وغربا، وأن مجالس العلماء فيه كانت مشهورة، وأن المسائل التفسيرية كانت سائدة، ويتم تداول الكتب والمباحث العالية كما تفيده النصوص الآتية، وأن التفسير كان من اختصاص أعيان العلماء، حيث كانوا يُقصدون بإشكالات التفسير، ومشكلات التأويل الكبرى. كما حدث لأحد ابني الإمام هنا، وللآبلي في النص المشهور في إصلاح الخلل الوارد في كتاب التفسير للفخر الرازي، وهو نص سأورده في محلّه؛ لدلالته على قدرة المفسر الجزائري يومها على متابعة الدرس التفسيري في مختلف أطواره.

وأسوق هنا نصا مفاده أن ابنَ الإمام تحدث عن نفسه من أنه وُجّه إليه سؤال وهو بالمشرق حول اقتضاء الجمع بين آيتين على طريق الصنعة المنطقية بحذف الوسط إنتاجَ ما ليس بمراد. وليس في النص أن ابن الإمام أجاب السائل لكن فيه أنه تعقب جواب من سأل عن ذلك بعد عودته إلى بجاية فقد قال: " وقال: ذكر أبو زيد بن الإمام في مجلسه يوماً، أنه سئل بالمشرق عن هاتين الشريطتين: (وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) [الأنفال: 23]، فإنهما يستلزمان بحكم الإنتاج " ولو علم الله فيهم خيراً لتولوا وهم معرضون "، وهو محال. ثم أراد أن يرى ما عند الحاضرين، فقال ابن حكم؛ قال الخُوَنْجي، والإهمال بإطلاق لفظة (لو) وأن

في المتصلة، فهاتان القضيتان على هذا مهملتان، والمهملة في قوة الجزيئة، ولا قياس على جزئيتين. فلما اجتمعت ببجاية بأبي علي حسين بن حسين، أخبرته بهذا، وبما أجاب به الزمخشري وغيرُه، مما يرجع إلى انتفاء أمر تكرار الوسط. فقال لي: الجوابان في المعنى سواء، لأن القياس على الجزئيتين إنما امتنع لانتفاء أمر تكرار الوسط. وأخبرت بذلك شيخنا أبا عبد الله الآبلي، فقال: إنما يقوم القياس على الوسط، ثم يشترط فيه بعد ذلك أن لا يكون من جزئيتين ولا سالبتين، إلى ساير ما يشترط. فقلت: ما المانع من كون هذه الشروط تفصيلاً لمجمل ما ينبئ عليه الوسط وغيره، وإلا فلا مانع لما قاله ابن حسين؟ قال الآبلي؛ وأجبت بجواب السلوى، ثم رجعت إلى ما قاله الناس، لوجوب كون مهملات القرآن كلية؛ لأن الشرطية لا تنتج جزئية. فقلت: هذا فيما يساق منها للحجة مثل (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا)[الأنبياء: 22]. أما في مثل هذا فلا. قلتُ: وكان يلزم السؤال الأول لو لم يكن للمتولي سبب تأخر، حسبما تبين في مسألة: لو لم يطع الله. فلينظر ذلك في اسم شيخنا أبي بكر يحيى بن هذيل رحمه الله."[16].

والذي يهم هنا أن قصد العالم المشرقي المذكور ابنَ الإمام بالسؤال يشير إلى شهرته بالقدرة على التفسير، وأن توجيه ابن الإمام السؤال إلى شيخه ببجاية يرشد إلى أن الدرس التفسيري بها كان راقيا، إلى الدرجة التي يشير إليها رفع الإشكال، وأيضا أن تفسير الكشاف كان رائجا، وقد حلّ محل القبول من العلماء ومدرسي التفسير خصوصا...

ومما يذكر في شخصية النقاوسي (في حدود 740هـ/1367م)، فيما وصفه به البَلَوي في البرنامج المشهور(749هـ/1376م)، من أنه كان ذا إحاطة بعلوم شتى منها علم التفسير، وعبارة البلوي المذكور "... إلى إحاطةٍ بعلم التفسير والحديث."[17]. وهو وصف أدلى به ساعة حضوره مجلسَه، وما تسنَّى له من خلال الوقوف على دروسه فيما ذكر عموما وخصوصا في التفسير.

ومن الشخصيات التي اشتهرت بتدريس التفسير خارج الوطن كما يفيده النص الآتي منصور بن علي بن عبد الله الزواوي ففيه أنه كان يدرّس التفسيرَ بالأندلس حيث " قدم الأندلس في عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، فلقي رحباً، وعُرف قدْره، فتقدم مقرِئا بالمدرسة تحت جِراية نبيهة، وحلَّق للناس متكلماً على الفروع الفقهية والتفسير، وتصدر للفتيا..."[18]. ويقتضي هذا أنه مكث في التدريس زمانا يكفي لإجراء العطاء المذكور عليه، ويكفي لحصول الشهرة بين العلماء وأصحاب التراجم بذلك.

ومن المعلوم أن منصورا الزواوي (بعد 770هـ/1422م) من تلاميذ الإمام الباهلي(744هـ/1343م)، فقد ذكر ابن الخطيب (ق 7هـ/1300م) أن له عليه مشيخَة بقوله: " ومفيدُنا المقدم أبو عبد الله محمد بن يحيى الباهلي المعروف بالمفسّر رحمه الله."[19]. والباهلي شخصية معروفة بتآليفه في القراءات والتفسير وعموم علوم القرآن.

وفي كتاب تعريف الخلَف نصوص عن الشريف التلمساني نبدأ بما يتعلق بأبي زيد بن الإمام، وأنه كان مجلس في التفسير، وكان من تلامذته وهو ما يفيده النص التالي عن الشريف التلمساني أنه " حضر يوما مجلس أبي زيد بن الإمام في تفسير القرآن، فذكر نعيم الجنة فقال له الشريف وهو صبي: هل يقرأ فيها العلم؟ قال له: نعم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين. فقال له: لو قلتَ: لا، قلتُ لك: لا لذة فيها، فعجِبَ منه الشيخ."[20].

وأما الشريف التلمساني نفسُه فقد " فسّر القرآنَ خمسا وعشرين سنة بحضرة أكابر الملوك والعلماء والصلحاء وصدور الطلبة، لا يتخلف منهم أحدٌ، عالما بقراءته ورواياته وفنون علومه من بيان، وأحكام وناسخ ومنسوخ وغيرها."[21].

وهذا يعني أن درسه كان راقيا، وأنه قد وقع له تسليم الأقران والأكابر بذلك، وقد أخذ عنه هذا الفن على مدار السنين من لا يحصون كثرة من الطلبة، وجمهور المؤمنين، خصوصا وأنه كان " غالبا يقرأ المدونة بعد التفسير حتى مات."[22]. ودرس الفقه كان مقصودا وأنه الأساس في التعليم يومها.

وأما عن مقدار ما كان يفسره فقد ذكر أنه: " يقرئ في التفسير نحو ربع حزب كل يوم مع البحث، وإذا طال بحث الطلبة أمرهم بالتقييد في المسألة ثم يفصل بينهم."[23]، وهو مقدار لا يطيقه غير الطالب المتخصص على طريقة الشريف في التوسع، والخوض في الفنون المتعلقة من لغة وبلاغة ومنطق كما كانت صيغة التفسير يومها شرقا وغربا، مع الاستشكال ودفعه.

وبخصوص القرن التاسع محل الدراسة فإن البسيلي رحمه الله كان ممن تعاطى التدريس، وليس بين يدي الآن أنه درس التفسير، ولكنه نص عام يشمل عموم المواد التعليمية المقررة يومها بالمدارس، و" كان مدرسا بالمدرسة الحكيمية (نسبة إلى محمد بن علي اللخمي المعروف بابن حكيم)، وكان يقرِئُ بدار سقيفته كثيرا."[24]. وفي إضافة فيها الرصاع " يعتبر البسيلي من فقهاء المذهب المالكي ويعده الباحثون من العلماء وقد اشتغل بالتدريس، فانتصب له بالمدرسة الحكيمية كما كان يقرئ بسقيفة داره، وهذا حسب ما ذكره تلميذه الرصاع: حضرت مجلسه بالمدرسة الحكيمية، وقرأت عليه جمل الخونجي . وكان يقرئ بسقيف داره كثيرا وتقصده الطلبة تسأله عن المسائل المشكلة."[25].

ورد في بعض النصوص أن الثعالبي كان ممن قد اشتغل بتدريس التفسير، فهو يذكر ذلك، وأنه أجاز به بعض تلامذته المذكورين في النص الآتي، ولا يبعد أن تكون الإجازة عامة على ما كان معروفا. ففيه " الحمد لله سمعَ عليّ الفقيه الأنجب الفاضل أبو إبراهيم إسماعيل بن إبراهيم السجناسني جميع هذا السفر الأول، وسمع عليّ مِن الذي يليه إلى سورة سبأ، وأجزته أن يرويَه عني، وأن يقرأه متثبتا ومتحريا، ويقف عن الخوض فيما لم يصل إليه فهمُه إلى أن يقف على فهمه، وأنا بريء من التحريف."[26].

وفي نص ثان للسجناسني المذكور، وهو أحد تلامذته الذين داوموا حضور درس التفسير عنده، " فالذي ختمته عليه ورويته: الجواهر الحسان..."[27]. وهي نصوص تدل على أن الثعالبي كان يدرس التفسير وخصوصا كتابه الجواهر الحسان، وأنه كان متحفظا في الإجازة مشترطا فيها على من يجيزهم.

وفي ترجمة القلصادي أن الإمام قاسما العقباني (854هـ/1451م) كان ممن يدرس التفسير إضافة إلى علوم أخرى، وكان العُقباني هذا قد بلغ رتبة الاجتهاد وإن لم يدَّعِه لنفسه. وفي الضوء اللامع عرضٌ لمن أخذ عنهم القلصادي المذكور بشكل موسع " ثم إلى تلمسان سنة أربعين...فلازم الشيخ أحمد بن زاغو، وقاسما العقباني، ومحمد بن مرزوق فدرس عليه في التفسير والحديث والفرائض والنحو وعلى العُقباني في التفسير والحديث والفقه والأصلين وعلى ابن زاغو في التفسير.."[28]. وفيه زيادة على ما في الرحلة من أن أبا الفضل قاسما العقباني كان ممن يشتغل بتدريس التفسير، وأن القلصادي على تقدمه في الطلب كان يحضر مجلسَه، وإن لم يبلغنا أن قاسما العقباني ترك في التفسير عملا، غير جواب في آخر كتاب الدرر المكنونة للمازوني عن سؤال في التفسير.

وممن درَّس التفسير أيضا أبو الفضل المغربي، ففي منشور الهداية عن ولد المشدالي أنه " تصدى للإفتاء بالمدينة المذكورة زمن الجد عبد الكريم ودرّس بها، وذكر أنه تصدى للتفسير."[29]، وفي الضوء اللامع تصريح بهذا وغيره إذ درَس المشدالي " علوم الشَّرْع التفسير والحديث والفقه على أبيه."[30]، ولما قدم تلمسان أخذ المشدالي عن بن مرزوق وهو المقصود بلفظ (فعلى الأول) " فعلى الأول في التفسير والحديث والفقه والأصلين."[31]، وأخذ عن أبي الفضل بن الإمام " التفسير والحديث والطب والعلوم القديمة والتصوف."[32]. كما فيه أيضا أن المشدالي تتلمذ على أبي العباس أحمد بن زاغو، فأخذ عنه جملة من الفنون والتي هي: " التفسير والفقه والمعاني والبيان والحساب والفرائض والهندسة والتصوف.[33]. وبدوره بعد أن تأهل للتفسير، انتصب المشدالي المذكور (865هـ/1459م) لتدريس التفسير في أمر أجملته هنا من الضوء اللامع حيث " انتزعَ له تدريس التفسير بقبة المنصورية."[34]، ويقصد بانتزع له أي من غيره من مفسري أهل مصر.

ومن أشهر مدرسي التفسير وغيره من الفنون المتعلقة به، الإمام تقي الدين الشُّمُنِّي، ففي ترجمة إبراهيم بن عبد الرحمن الحنفي إمام السلطان ويعرف بابن الكَرْكي... أنه " مما أخذ عن الشمُنُّي التفسير وعلوم الحديث والفقه والأصلين والعربية والمعاني والبيان والمنطق وغيرها بقراءته وقراءة غيره تحقيقا ودراية."[35]. والنص يفيد الأهلية التامة للشمني القسنطيني في تدريس جملة فنون علوم الإسلام، مع وجود غيره من أعيان العلماء، ومنهم السخاوي وما أدراك.

وفي ترجمة محمد بن علي بن محمد بن نُصير الشمس أبو الفضل الدمشقي القوصي الأصل القاهري الشافعي، أورد السخاوي أنه " أكثر من الأخذ عن الشمني في فنون كالتفسير والأصلين والعربية والمعاني."[36]. وتكرر أخذ المشايخ عنه. وأذكر قبل أن أختم أحمد بن محمد الكناني الشافعي (895هـ/1490م)...ففي ترجمته أنه " سمع على الشمني في حاشيته على المغني بل سمع عليه في التفسير والحديث وغيرهما."[37]. وأختم بهذا النص لما فيه من ذكر مقرر التفسير في التدريس بمصر، أسوة بغيرها إذ كان تفسير أنوار التنزيل للبيضاوي قد لقي القبول التام وحلّ محل الكشاف وغيره أو كاد. والغرض التدليل على قيام التقي الشمني بالتدريس خصوصا مقرر التفسير، السنين الطويلة، وبحضور الطبقات العليا، إضافة إلى الدراية والرواية والتحقيق التام.

ومحمد بن يوسف السنوسي (895هـ/1490م) ممن درس التفسير، فأبدع فيه كما ذكر الملّالي " فتجده رضي الله تعالى عنه إذا شرع في تفسير آية من كتاب الله تعالى، أو تفسير حديث من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عدد ما أحاط به علم الباري سبحانه يبدي فيها من بديع التأويلات، وكثرة الاحتمالات ما لا يمكن التعبير عنه، ولا يوجد في كثير من المطولات."[38]. بل له في تفسيره وفي تدريس التفسير مقاصد يستقصيها، ويجعل درس التفسير وسيلته إليها، فقد قال الملالي أيضا: " كان رضي الله تعالى عنه لا يقرئ في علم من العلوم الظاهرة إلا خرج منها إلى علوم الآخرة، لاسيما إذا كان يقرئ علم التفسير والحديث، وما ذاك إلا لما احتوى عليه باطنه من خوف الله تعالى، ومراقبته له في كل لحظة، وعدم التفاته إلى شيء من زخارف الدنيا، حتى كأنه يشاهد الآخرة بين يديه، فصارت قراءته للعلوم الظاهرة راجعة كلها في الحقيقة علوما باطنة."[39].

كما نجده ختم ذلك التدريس وقد ذكر الملالي أن درس الختم كان مشهودا، يسعى السلطان فمن دونه لحضوره " وكذا أيضا لما عزم الشيخ رضي الله تعالى عنه على ختم تفسير كتاب الله المجيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وقد كان وقف على سورة الإخلاص سمع بذلك وزير السلطان وأراد أن يختم التفسير، وكان الشيخ أراد أن يختم سورة الإخلاص في يوم والمعوذتين في اليوم الذي بعده وسمع الوزير بذلك فأراد أن يحضر عنده في اليوم الثاني الذي يقرأ فيه الشيخ تفسير المعوذتين وهو يوم الختم."[40]. وهي نصوص أوردتها من قبل، وأعدتها هنا لتعلقها بخصوص موضوع التدريس.

وممن تصدى للتفسير وإن كان لم يترك تأليفا في ذلك يكون قد اطلع عليه الباحثون، أو ذكره أصحاب التراجم الإمام التنسي (899هـ/1494م) فقد حضر درسه أبو جعفر البلوي، وحدث عن نفسه قائلا: " سمعت على شيخنا وبركتنا وسيدنا ومولانا الكاتب لما فوقه جملة وافرة من تفسير كتاب الله العزيز من سورة الأعراف فاتني منها أقلُّها بما يجب لذلك من التحقيق والتحرير، مما ذكره المفسرون، وما لم يذكره صاحبُ تفسير؛ بل من نتائج فكره المصيب، ومتلقياته عن مشايخه الأعلام الذين ورث مقاماتهم بالفرض والتعصيب، وسمعت عليه شيئا من البيوع من كتاب مسلم بقراءة ابنه سيدي أبي الفرج في أيام التفسير."[41].

وفيه الوصف بالمقدرة المعرفية، والمَلَكَة العلمية التامة. وفي آخر النص ما يفيد أن التفسير كان على وفق كتاب مقرر لم يذكر اسمه يعهد بقراءته لقارئ معين، وقد يستخلف آخر عند الغياب، كما كان معروفا.

وهناك شخصية أخرى حضرت التفسير عن التنسي، وكان من تلامذته، وأنه كان له مجالس في التفسير، وله فيه تلاميذ فهذا ابن العباس الصغير يقول " لازمت مجلس الفقيه العلَم الشهير سيدي التنسي عشرة أعوام، وحضرت إقراءه تفسير..."[42]. وهي مدة تكفي للختم خصوصا في المدارس وحيث يستمر الدرس في جميع أجزاء النهار ولفترات طويلة في مختلف الفصول، وأكثر من هذا إذا كان محور الدرس كتابا مقررا على الطلبة جرت العادة بالسعي إلى ختمه، وهو ما كان يحصل في جملة مقررات الدراسة بما فيها التفسير.

هذا كله في القرن التاسع وعن مدرسي التفسير فيه، وفي فاتحة القرن العاشر تظهر شخصية كبيرة قد ختم تاريخ العلم الشرعي بها، ولم يتكرر بعد ذلك من هو في مستواها، في التمكن من الفنون، والتلمذة على أعيان القرن التاسع. ينتمي ابن مرزوق الكفيف (901هـ/1496م)[43] إلى عائلة عريقة في العلم، رواية ودراية، فقد كان يدرس التفسير وممن حضر مجلسه البلوي، واقتصر حضوره على ما ذكره في قوله:" وحضرت إلقاءَه تفسير بعض سورة آل عمران من كتاب الله تعالى على ما يجب في ذلك وله من التحقيق والتحرير."[44]. وهو المقدار الذي تحتمله الرحلة إذ كان البلوي المذكور حلّ تلمسان آخر القرن التاسع.

وفي فهرس ابن منجور ذكر لطائفة ممن أخذ عن عبد الواحد الونشريسي (955هـ/1550م) درس التفسير وغيره، منهم الشيخ اللّمْطي فقد حضر عبدَ الواحد الونشريسي في التفسير:" وكان يلازم دروس ... الونشريسي أبي محمد عبد الواحد في فرعي بن الحاجب والتفسير وغيرهما."[45].

وممن حضره عثمان بن عبد الواحد اللمطي زيادة على عبد الواحد الونشريسي، شخصية ثانية يفيدها النص التالي: " كان ملازما لابن هارون بمدرسة العطارين، ولكرسي التفسير وابن الحاجب للونشريسي."[46]. وليس فيه ذكر ما أخذه عن ابن هارون التلمساني.

وممن حضر عند عبد الواحد الونشرسي التفسير، محمد بن مجبر المساري " وختم عليه أخرى بكرسي الغداة بجامع القرويين، وكثيرا من ثالثة بذلك الكرسي، وحضر عنده منه كثيرا بغير ذلك الكرسي، كمسجد العقبة الزرقاء المتصل بداره، ومسجد رحبة الزبيب وغيرهما. ولازمه في التفسير حتى ختم، وأعاد عليه أخرى إلى أثناء سورة يوسف عليه السلام."[47]. وفيه زيادة على ما فصّله من أن الونشريسي المذكور كان يدأب على ختم التفسير، وهي ظاهرة إيجابية تدل على اعتناء الجزائريين بالدرس التفسيري حتى خارج الجزائر.

وفي ترجمة محمد بن علي العدي أنه لازم ابن هارون والونشريسي، وفي النص ذكر لتدريس ابن هارون للتفسير، وهو ما كنت تساءلت عنه من قبل:" ولازم أيضا دروس المفتيين المذكورين في الفقه وغيره، وتفسير الشيخ أبي القاسم بن إبراهيم بالمدرسة المصباحية مدة."[48]. وفيه أيضا أن مقرر درس التفسير كان كتاب أبي القاسم بن إبراهيم.

وتطالع الناظر في القرن العاشر شخصية لم تحظَ بالتوسع في كتُب التراجم، لكن ذكرَ في منشور الهداية أن عمَّه قاسما الفكُّون (965هـ/1567م) كان " ممن فاق عصرَه في علم المعقول، وكان ممن تصدى للتفسير زمنَ مشيخة عصره، وناهيك بهم مَشِيخةً فيهم الشيخُ الوزّان، وحضره وأثنى عليه."[49]. وقد أخذ قاسم الفكون عن جملة من المشايخ منهم الوزان المذكور ومنهم شخصية عرفت بالتفسير وقرأت على مفسرين من المشرق، إذ كان من " شيوخه الشيخ مغوش[50]، الذي طبق حفظه الأرض وهو أشهر من أن يذكر، ومن شيوخه أيضا الشيخ العارف الوزان."[51]. وفي ترجمة موسى بن علي بن إسماعيل بن عماد الدين الدمشقي، كما في الكواكب السائرة للغزي، أنه أخذ " التفسير عن الشيخ مغوش المغربي، عن سيدي محمد السنوسي البوني الأصل."[52].

وإنما سقتُ هذا النص للدلالة على أهلية الشيخ مَغُوش المذكور في التفسير، وذكر مشايخه فيه. وفي بعض النصوص أنه لقيَ بالمشرق مفتيها الشيخ أبا السعود المفسر المشهور مؤلف كتاب إرشاد العقل السليم. وورد في ترجمة مغوش المذكور أنه أقام " داخل دمشق فاجتمع به أفاضلها، وشهدوا له بالعلم، والتحقيق خصوصاً في

التفسير، والعربية، والمنطق، والكلام، والعروض، والقراءات، والمعاني، والبيان وقالوا: لم يرد إلى دمشق من يستحضر كلام السعد التفتازاني، والسيد الشريف، ويقرره، وما يَرِد عليه، وقرأ عليه الشيخ علاء الدين بن عماد الدين الشافعي، في أوائل تفسير القاضي البيضاوي، فأفاد وأجاد إلى الغاية، حتى أذهل العقول."[53]. والغرض التنويه ببعض التونسيين شيوخ بعض الجزائريين في التفسير.

وذكر عبد الكريم الفكون أن الشيخ أحمد الجزائري، كان ممن " يتعاطى التفسير والفقه ويدعي الأستاذية في السبع."، وعبارة الفكون، توحي بالتعجب وعدم الإقرار للجزائري المذكور في ذلك، وقد ترجم لجملة من الأشخاص عقَّبَ على دعاويهم للعلم والفقه بالإنكار، والنقض لتلك الدعاوي. ومهما يكن من أمر الجزائري هذا وعبارة الفكون السابقة فإن التدريس بالمستوى الذي تحتمله الظروف العلمية في زمن الفكون قد وجد واستمر.

وممن درس التفسير واجتهد في إحياء سنة الطلب في تحصيله، محمد بن عبد الرحمان بن جلال (981هـ/1583م) فعند ابن منجور أنه كان يحضر التفسير على عبد المالك البُرْجي:" وحضر عند الفقيه النوازلي أبي مروان عبد المالك البرجي التفسير وغيره."[54].

وممن اشتهر بتفسير القرآن، وعرف بمجلسه فيه الشيخ محمد بن علي أبهلول، فقد عرفت مكانته في علوم التفسير والحديث وما شابهها. وروى الشيخ سعيد قدورة أيضا أن شيخه " قد وصل في تفسيره إلى سورة الإسراء قبل أن يقتل (1008هـ/1603م)."[55]. وهي عبارة تدل على قصد الختم في درس التفسير ما لم يحصل للمفسر ظرف قاهر.

وفي منشور الهداية وهو مصدر معاصر للقرن المذكور أن أحمد المقري كان يدرس التفسير بالعاصمة (1041هـ/1636م): " فنزل بدار الجزائر على فقهائها وعلمائها وتصدى للتدريس بها، وقرأ التفسير على ما قيل في أيام إقامته."[56]. ولم يكن الفكون قد عاين المجلس بل بلغه ذلك عن غيره. وهو أمر غير مستبعد، لكون المقري من المفسرين وقد ترجمت له وله كتاب إعراب القرآن[57]، وغير ذلك.

وهناك شخصية أخرى شغلت القرن الحادي عشر بكتاباته النقدية، وفتواه بخصوص تحريم الدخان، وما كتبه مما يعتبر عملا إصلاحيا تعلق بالخطاب الديني، ومقاومة البدع...وإن كان أقل رتبة في الشهرة العلمية من عمه قاسم وهو الشيخ عبد الكريم الفكون الذي ذكر عن نفسه أنه كان يحضر التفسير عند محمد التواتي، والملاحظ أن ملكة العلوم قد تناقصت لهذه الأزمنة، حتى أصبحت أسماء الفنون لا تعكس محتوياتها، وهو أمر لاحظه الفكون نفسه فقد قال عن نفسه: " قرأت عليه المرادي سنة إحدى وثلاثين وألف مرارا... وحضرته للتفسير نحو العشرة أحزاب."[58]. وفي منشور الهداية وفي مواضع متعددة نقد كبير لأسماء يراها هو بدون مسمَّيات علمية، وادعاء فنون لا طائل تحته.

وتشير كتب التراجم إلى المقدرة العلمية التي تحلى بها الشيخ يحي الشاوي (1096هـ/1691م)، وما أبداه في المحاكمات من واسع العلم والمعرفة بالتفسير، وعلوم العربية. وأتعرض هنا إلى أنه كان يدرّس التفسيرَ بدمشق وبغيرها، كما يفيد بعض ذلك الناص التالي، إذ فيه " وقرأ عليه هو وجماعة من بلدته دمشق وغيرها كالعلامة السيد محمد أمين المحبي والفاضل الشيخ أبو الإسعاد بن الشيخ أيوب الخَلوتي والشيخ عبد الرحمن المجلد والسيد أبو المواهب سبط العرضي الحلبي فقرءوا تفسير سورة الفاتحة من البيضاوي مع حاشية العصام."[59].

ويفيد سعد الله نقلا عن ابن ميمون أن أبا الحسن علي عبد الواحد السجلماسي(1057هـ/1652م)، كان ممن يدرس التفسير إضافة إلى ما ذكر من أنه نظم من التفسير البدايات الأولى من سورة البقرة. وقد كان درسه عاما. وربما كان يأخذ حضور العامة في تفسيره، فيبين لهم مقاصد السور والآيات، ويقرب ذلك للناظرين. " وقد روى محمد بن ميمون أن القاضي أبا الحسن علي كان بارعا في تفسير القرآن حتى اشتهر به وتسابق الناس إلى درسه في

الجامع الكبير."[60]. ومقدرة السجلماسي المذكور على التفسير كبيرة، فقد ورد في شأنه أنه " مرَّ على الكشاف من أوله إلى آخره ثلاثين مرة منها قراءة ومنها مطالعة."[61].

كما نقل سعد الله نقلا عن ابن ميمون أن الشيخ المفتي مصطفى بن عبد الله البوني كان يطالع تفسير الثعالبي " على سبيل التفقه وأنه أجاد فيه."[62]. وواضح أن هذا كان في متناول عامة الناس نظرا لطبيعة تفسير الجواهر الحسان وخلوه من المباحث التخصصية، ومكانة صاحبه الصوفية خصوصا إذا كان ذلك بمدرسته أو بالمسجد.

وممن نص ابن زاكور في رحلته أنهم كانوا يدرسون التفسير أبو عبد الله بن خليفة (1094هـ/1689م)، بل يذكر سعد الله استنادا إلى ابن زاكور دائما أنه كان يختم التفسير: " وذكر ابن زاكور في رحلته أن أبا عبد الله بن خليفة الجزائري قد ختم القرآن الكريم تدريسا."[63]. وهكذا فإن حركة تدريس التفسير كانت متاحة وأنها كانت مستمرة وتبلغ مداها خصوصا بالختم، وما يتطلبه من طول المدة.

وفي ترجمة عبد القادر الراشدي شيخ أبي راس الناصري، وشيخ اللغوي الكبير مرتضى الزبيدي، وقد أجاز الراشدي هذا الأخير وراسله بالإجازة من قسنطينة، وفي النص المقصود أن عبد القادر الراشدي القسنطيني كان يدرس التفسير، وأنه " كان يعقد مجالس للفتوى والتفسير."[64]، بل إن بعض هذه المجالس كانت بحضرة الباي، ففسر الراشدي " عدة آيات وقعت بمجالس صالح باي."[65]. وهو تقليد معروف وإن كانت النصوص لا تدلّ على كثرته واستمراره، ربما لكون البايات عَجما، وقد شغلوا بأمور السياسة والعسكر أكثر من الأمور الثقافية؛ استجابة لظروف الفتح وغيره، خصوصا في القرن الأولى زمن تواجدهم.

وممن نقل أنه درسوا القرآن بالمسجد وجرَوا على سنة العلماء الجزائريين في ذلك، واستمروا في التدريس والتفسير حتى بلغوا النهاية فيها الشيخ ابن للُّو، فقد نص سعد الله أنه ختم التفسير" القرآن الكريم في الجامع الأعظم بتلمسان."[66].

وحتى عند دخول المستعمر فضلا عن الفترة السابقة لذلك الدخول والقدوم المشئوم، فقد كانت سيرُ المشايخ لا تكاد تنقطع في تدريس التفسير، للطلبة خصوصا، ولعموم المؤمنين، فإن الشيخ المشرفي وهو شخصية عاصرت دخول الاستعمار يحدث عن نفسه: " ففاجأنا دخول الإفرنس دمره الله الثغر الجزائري، فلم يتم لنا المراد في قراءة التفسير ومتون الصحاح، فرجعت لغريس."[67]. ويقصد بالدخول هنا دخول وهران فقد كانت كما هو معلوم من ترجمته المكان الذي سافر إليه لدارسة العلم الشرعي، وكانت هي الوجهة لجميع طلبة الغرب خصوصا، لتوفر المشايخ بها.

وبدوره وبعد التأهل لذلك جلس المشرفي يدْرّس تسير البيضاوي والخفاجي، وقد اطلعت على شخصية درست عند المشرفي التفسير خصوصا، وهي شخصية محمد بن سعد بن التلمساني، كما يفيده النص التالي من أنه " قرأ عليه شرح البخاري سنة 1245هـ/1830م، وتفسير البيضاوي وحاشية الخفاجي عليه."[68].

ولما كان بعض الجزائريين عائلاتٍ علميةً وغيرَها قد اختارت أن توقع على رفض وجود الاستعمار بالأقدام، فقد هاجرت شخصيات إلى المشرق ولم ينقطع اتصالها بالعلم، فعن أحمد بن محي الدين الإغريسي أنه " حضر في التفسير على أخيه العلامة السيد محمد السعيد."[69]. كما في تعريف الخلف للحفناوي. وممن حضره الإغريسي هذا وفي التفسير دائما الشيخ قاسم الحلاق[70]، فقد " حضره في أوائل تفسير البيضاوي."[71].

- تدريس التفسير في العصر الحديث:

جلس الشيخ الخضر حسين يدرّس التفسير، ويبدو أن ذلك كان عقب تخرجه من الزيتونة وحصوله على شهادتها، ففي ترجمته ما يفيد أنه تقدم لذلك، وأن الوالي استدعاه، واستفهمه ليستكشف مقدرته العلمية على ذلك، وأن الخضر حسين بين له المراد، وغير مكان الدرس إلى مكان آخر كما في النص الذي أورده هنا، وأعيد إيراده

في مكان آخر للحاجة. وفيه ما نصه على لسان الشيخ الخضر حسين دائما؛ وذلك أن " علماء جامعة الزيتونة لا يقرؤون تفسير القرآن إلا إذا قرؤوا علوم المعقول والمنقول، حتى يدركوا بلاغة القرآن. وأذكر أنه طلب مني بعضُ الطلبة أن أقرأ لهم تفسير البيضاوي في جامع (حمّودة باشا)، فأجبت رغبتهم وقرأت منه دروسا، فأرسل إليّ القاضي المالكي يدعوني إلى المحكمة، فذهبت إليه فقال لي: بلغني أنك تدرس التفسير. فقلت: نعم. فقال لي: على من قرأته؟ فقلت: على شيخنا عمر بن الشيخ، وشيخنا محمد النجار. فقال لي: هؤلاء ما قرؤوا التفسير إلا بعد أن صاروا شيوخا كبارا... فقرأت التفسيرَ في مسجد " أبي القاسم الجلّيزي."[72].

هذا إضافة إلى ما كان يلقيه من دروس التفسير وهو بمصر وبالمشرق العربي، في المساجد والنوادي، وفي مختلف المناسبات، وهي الدروس التي جمعت من بعد في كتابه أسرار التنزيل. وقد قال من جمعها أنه سعى إلى تحصيلها من خلال " دروس التفسير التي ألقاها في بعض النوادي والجمعيات الإسلامية، ونشرت في مجلة الهداية الإسلامية التي كان يصدرها المؤلف في القاهرة."[73]. على فترات زمنية متطاولة رحمه الله رحمة واسعة.

وأسوة بشيخه الخضر حسين، بل بجميع مشايخه وكثير من علماء الجزائر خصوصا المفسرين منهم، فقد جلس ابن باديس بالمسجد حيث " قام بتدريس تفسير القرآن بقسنطينة خمسا وعشرين سنة، فاحتفلت الجزائر بختمه له في الثالث عشر من ربيع الثاني سنة سبع وخمسين وثلاثمائة من الهجرة."[74]. وهي مدة طويلة تدل على أمور منها: القدرة على الاستمرار في الدرس التفسيري، وأن ابن باديس بعقليته الإصلاحية كان يرى أن القرآن وتفسيره بالتالي هو محور كل حركة إصلاحية، وأن حادث الختم خصوصا على طريقة ابن باديس التي تجمع بين التدريس والتربية، والكتابة الصحفية، ومحاولة توجيه الحياة بمختلف مجالاتها بمضامين القرآن كان عملا عزيزا لم يتكرر إلا بعد الاستقلال –فيما اطلعنا عليه - على يد الشيخ بيوض بصورة متفاوتة الدوافع لكونها بعد الاستقلال الوطني.

وأنتقل في مجال التدريس إلى المفسرين من الإباضية، فقد ساروا وعلى نفس المنوال وهو ما كان معهودا في الوطن الجزائري خصوصا وعموم بلاد الإسلام من المزاوجة بين تدريس التفسير والتأليف فيه. وقد وصل إلى أيدي الباحثين بل وعموم المطالعين للتفسير إنتاج وفير خصوصا هذا القرن، كما رأينا عند الشيخ اطفيش والشيخ بيوض... وأذكر هنا الشيخ إبراهيم القراري حفار (1954م)، وهو من أخصّ تلاميذ اطفيش وقد كان يدرس التفسير بالقرارة؛ حيث " ألقى دروسا...منها دروس في تفسير القرآن الكريم بمسجد القرارة، حضر منها الشيخ عدون أكثر من درس في تفسير سورة براءة."[75].

وحضور العلماء دروس تفسير أقرانهم من الملاحظات التي تلفت بال الناظر، وقد رأينا ذلك عند الشريف التلمساني في مجلس السلطان، وابن مرزوق الحفيد بتونس، والإبراهيمي في درس ختم القرآن للشيخ ابن باديس، وهذا النص الأخير والذي فيه أن أحد أعيان المذهب الإباضي وهو الشيخ عدُّون كان يحضر دروسَ الشيخ إبراهيم القراري، وهي في النهاية من تواضع العلماء، ومن تأديب الطلبة في تحصيل العلم.

وإن من الذين درسوا التفسير، للعامة والخاصة الشيخ إبراهيم بن إدريسو وهو من تلامذة الشيخ اطفيش، ومدرس للتفسير، " فكان يشتغل بالتعليم من أول النهار إلى منتصفه، ومن الظهر إلى ما بعد العصر بالدروس العامة في التفسير وغيره."[76]. وليس في جميع هذه النص أن التفسير كان على وفق مقرر معين من تآليف العلماء المعهود تدريسها بالمعاهد العلمية والمدارس، الجلالين، والبيضاوي أو هو تفسير حر يعمِدُ فيه المدرس إلى مجموعة من التفاسير يختار ما يناسب الدرس، ويتوافق مع مقاصد المفسر.

وممن فسر القرآن تدريسا فأتمه الشيخ إبراهيم بيوض وهو من الإباضية المعاصرين، وكان قد انتمى إلى جمعية العلماء المسلمين، وتبنى أفكارا إصلاحية عمل على نشرها من خلال التفسير. وكانت بداية هذا التفسير كما يشير إليه النص التالي: " وفي غرة محرم سنة 1353هـ/1953م - بعد أتمَّ تفسيرَ جزء عمّ - واختتمه يوم 25 ربيع الثاني

1400هـ/12 فيفري 1980م، وأقيم له مهرجان عظيم، شهدته مختلف السلطات الإدارية والسياسية من شتى المستويات، كما حضر حشد كبير من الأئمة والعلماء."[77].

وأختم المفسرين الإباضية بشخصية الشيخ بالحاج بن عدون بن عمر قشّار 1996م الذي كان يدرس التفسير بالمسجد مدة سنين طويلة جاء تحديدها في النص التالي: " ولعل أبرز عمل علمي قام به يتمثل في تفسيره للقرآن الكريم في المسجد من سنة 1956م إلى 1996م، وأقيم له حفل تكريم بمناسبة ختمه يوم 20 جوان 1996م."[78]. وهو من تلامذة القطب اطفيش رحمهم الله جميعا.

وهناك لون آخر من ألوان تدريس التفسير وهو إعداد مقرر لطلبة معهد أو جامعة، ويعهد بتدريسه إلى مؤلفه أو إلى مدرس آخر، وقد كان للشيخ قشّار بلحاج " تفسير سورة يس إخراج طلبة الشريعة"[79]. ولم أطلع على هذا المقرر لمعرفة طريقة مؤلفه ومصادر التفسير.

ومن علماء صحراء بجنوب الجزائر من كان بدوره يدرس التفسير، وهو الشيخ بلعالم القبلاوي، وهو وإن لم يترك في التفسير عملا مستقلا صغيرا كان أو كبيرا إلا أنه " درس تفسير القرآن الكريم بتفسير فتح البيان لمحمد حسن خان، في خمسة أيام من الأسبوع عدا الخميس والجمعة بلغ فيه إلى سورة الواقعة وقت إعداد هذه الترجمة (1997م).[80]. وقد تحدث هذا الشيخ الجليل رحمه الله عن نفسه بشأن ما كان يدرسه ويختم تدريسه من الفنون فقال عن تدريس التفسير: " وقد فسرنا القرآن فيها من أوله إلى آخره ووقت كتابة هذا البحث وقفنا على سورة العصر ومعتمدنا في التفسير فتح البيان في مقاصد القرآن للعلامة المحقق صديق حسن خان، وفي أول القرآن أخذنا من تفسير القرآن الجامع لأحكام القرآن ابتدأنا في التفسير من أوائل السبعينات من القرن العشرين (م)."[81]. وتاريخ هذا المقال قبل وفاته بسنين قليلة؛ علما أن مقاصد القرآن كتاب كبير الحجم بلغت طبعاته 10أجزاء من الحجم الكبير.

وممن مد الله في أعمارهم قبل وفاتهم الشيخ أبو بكر الجزائري، فقد لازم منذ سنين طويلة درس تفسير القرآن إضافة إلى باقي نشاطاته؛ " وقد انبرى الشيخ لتدريس التفسير ضمن دروسه في المسجد النبوي التي تذاع بإذاعة القرآن الكريم من المملكة العربية السعودية ."[82]. وقد حدث الشيخ محمد ن رزق الطرهوني في رسالته العلمية فقال: " وقد التقيت به عدة مرات وأخبرني أنه استمر في تدريس التفسير في المسجد النبوي طيلة خمس وأربعين سنة ختم خلالها القرآن أربع مرات وهو الآن في الختمة الخامسة."[83]. وجمع في كتابه أيسر التفاسير.

ومنهم أيضا التواتي بن التواتي، فقد ذكر في مقدمة تفسيره أن ما أبرزه للطبع أخيرا كان ثمرة تدريس التفسير لسنين طويلة بالمسجد، فقد قال: " ولا يفوتني هنا أن أذكر بخير الشيخ العلامة أحمد قصَيبة رحمه الله تعالى؛ إذ أن هذا الرجل الفاضل والعالم الجليل له كل الفضل في توجيهي إلى تفسير القرآن الكريم، وذلك حين انتدبت للتدريس في مسجد النور بمدينة الأغواط المحروسة فقد قصرت دروسي على الفقه المالكي، وكان الشيخ لتواضعه دائم الحضور، وذات يوم أشار إليّ بعد أن استضافني في بيته وأكرمني أكرمه الله من فيضه، ورحمه برحمته. قال لي رحمه الله: لو أنك تفاصل بين الدروس فجعلت يوما للتفسير ويوما للفقه؛ بذلك تجمع بين الأصل والفرع؛ فكان لهذا التوجيه الرشيد أثر في نفسي، وأخذت بوصيته فكان نتيجتها هذا العمل الذي احتسبه عند الله تعالى تأليفا لي وله - رحمه الله - توجيها."[84].

ولا يزال تدريس التفسير مستمرا بكثير من مساجد الوطن ومعاهده وجامعاته، وقد اقتصرت على من ذكرت، ولم أستوف عددهم لضيق مساحة المقال، وربما استوفاهم الباحث في غير هذا المحل.

الخاتمة: وأخلص مما تم عرضه إلى أمور منها:

- أن درس التفسير لم يزل مستمرا بالمغرب الأوسط امتداد لجهود الفاتحين من الصحابة والتابعين وعلماء المغرب، وإن كانت الوثائق تغطي بشكل معقول نشاط مسري القرن السابع فما بعده إلى يوم الناس هذا.

- أن ختم التفسير تدريسا كان عملا معروفا، وقد أحصت بعض الوثائق حصوله من أيام الشريف التلمساني، بل إن الهتم كان يوما مشهودا، وقد خص بعض المفسرين بالتأليف زيادة في التوثيق، كما فعل ابن زاغو (845هـ) تحديدا.

- أن تدريس التفسير كان نشاطا زائدا ومرافقا لباقي المواد الشرعية، ونبوغ المفسر يعكسه اشتغاله بتدريس باقي العلوم الشرعية ةما يتصل بها من علوم الآلة زيادة على التأليف وإن قلّ في التفسير وغيره.

- أن تدريس التفسير كان أحيانا يتم وفق مقررات جزائرية ومغربية وأخرى مشرقية، يدلك على ذلك اختصار هود بن محكم الهواري تفسير يحي بن سلام المشهور، والثعالبي لتفسير ابن عطية الأندلسي، والاحتفاء الكبير للمفسرين الجزائريين بالكشاف للزمخشري، وهو التفسير المشرقي المشهور، وأنوار التنزيل للبيضاوي المشرقي، وتفسير الجلالين للسيوطي المصري...

- أن تدريس التفسير كان يتم داخل الوطن وخارجه، يدلك على نشاط الخارج جهود التقفي الشمني، والمشدالي بمصر، ويحي الشاوي بالشام وتركيا، والخضر حسين بالشام ومصر...

- وأن هذا التدريس كان في المدارس والمساجد ومساجد السلطان، والمعاهد، والنوادي، والإذاعة...وكل هذه الوسائل القديمة والحديثة قدمنا أمثلة من باب الإشارة لا الحصر، وتركنا التلفزيون والمواقع الإلكترونية لفرص أخرى...

الهوامش:

[1] - أثر صحيح انظر شرح السنة للبغوي (المكتب الإسلامي، سوريا، ط:(01، 1982م) ج 13/ 234.

[2] - محمد بن عبد الكريم، توجيهات القرآن العظيم (مؤسسة المعالي للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م) ج 27/1.

[3] - أحمد العمراني، جهود الأئمة في خدمة تفسير القرآن الكريم. ص/ 585.

[4] - أبو بكر المالكي، رياض النفوس (دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط: 01، 1983م) ج 145/1.

[5] - أبو بكر المالكي، المصدر السابق. 146/1.

[6] - أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف (مؤسسة الرسالة . لبنان . ط: 02، 1985) ج 88/2.

[7] - القلصادي الأندلسي، رحلة القلصادي (الشركة التونسية للتوزيع . تونس . ط:01، 1978م) / 95.

[8] - القلصادي، المصدر نفسه. 104.

[9] - شمس الدين السخاوي،الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع (دار الفكر، لبنان، 1978م) ج 143/3.

[10] - رحلة القلصادي. المصدر نفسه. /104.

[11] - رحلة القلصادي، المصدر نفسه. 104.

[12] - أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه.ج 228/2.

[13] - بلحاج جلول، معجم المعارف والشمائل السنوسية (بحث غير منشور مقدم للجائزة الدولية لتراث السنوسي 2008م) 132.

[14] - أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 190/2.

[15] - أبو القاسم الحفناوي.، المرجع نفسه. ج 422/2.

[16] - لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة (دار الكتب العلمية، لبنان، ط:01، 2003م) ج 1/ 219.

[17] - خالد بن عيسى البلوي، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق (نسخة إلكترونية) / 19.

[18] - الإحاطة في أخبار غرناطة. المصددر السابق. ج 1/ 459.

[19] - الإحاطة في أخبار غرناطة، المصددر نفسه. ج 1/ 459.

[20] - أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 113/1.

[21] - أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 117/1.

[22] أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 118/1.

[23] - أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 118/1.

[24] - محمد محفوظ، معجم المؤلفين التونسيين (دار الغرب الإسلامي بيروت _ ط:01، 1982م) ج 104/1.

[25] - العالية شعراوي، تفسير ابن عرفة برواية البسيلي، رسالة ماجستير (كلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر. 2006) /80. راجع فهرست الرصاع :177.

[26] - عبد الرحمان الثعالبي، الجواهر الحسان في تفسير القرآن (المؤسسة الوطنية للكتاب. الجزائر. ط:02. 1982م) المقدمة. ج 1/ض – ط.

[27] - الجواهر الحسان. ج 1/ض – ط.

[28] - شمس الدين السخاوي، المصدر السابق. ج 143/3.

[29] - عبد الكريم الفكون، منشور الهداية (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط:01، 1985م) ص: 56.

[30] - شمس الدين السخاوي، المصدر نفسه. ج 4 / 383.

[31] - شمس الدين السخاوي، المصدر نفسه. ج 4 / 383.

[32] - شمس الدين السخاوي، المصدر نفسه. ج 4 / 383.

[33] - شمس الدين السخاوي، المصدر نفسه. ج 4 / 383.

[34] - شمس الدين السخاوي، المصدر نفسه.ج 4 / 388.

[35] - شمس الدين السخاوي، المصدر نفسه. ج 4/ 190.

[36] - شمس الدين السخاوي، المصدر نفسه. ج 4/ 190.

[37] - شمس الدين السخاوي، المصدر نفسه. ج 1/ 378.

[38] - محمد ن عمر الملالي، المواهب القدوسية في المناقب السنوسية. (مخطوط خاص) لوحة: 77.

[39] - محمد ن عمر الملالي، المصدر نفسه. لوحة 78.

[40] - محمد ن عمر الملالي، المصدر نفسه. لوحة 78.

[41] - أحمد بن علي، ثبَت أبي جعفر البلوي (دار الغرب الإسلامي _ بيروت_ ط:01، 1989م) /319.

[42] - أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 164/1.

[43] - من شيوخ الكفيف في التفسير: " وسمع عليه – أي ابن عتاب بتونس- بمجلس درسه جملة من تفسير القرآن العزيز سماع تفقه في أحكامه، وتفهم لمعانيه، مع ما أفاده رضي الله عنه مما لم تحتو عليه كتبُ التفسير من أبكار فكره، وأخذه عن شيوخه بعباراته الفصيحة، واستدلالاته المحكمة الصحيحة.". وحضر عليه – أبو حفص القلشاني- إلقاءه تفسير طائفة من الكتاب العزيز أولها قوله تبارك وتعلى (ولقد ذرأنا لجهنم)[الأعراف: 179]، ومنتهاها قوله سبحانه (ولوَ اسمعَهم لتولَّوْا وهمْ معْرِضُون)[الأنفال 23]، بما يجب لذلك الإلقاء من بيان المعاني واستنباط الأحكام وإيراد الأسولة والانفصال عنها وغير ذلك ولم تتفق له منه إجازة.". ثبت أبي جعفر أحمد بن علي: 312.

[44] - أحمد بن علي البلوي، المصدر نفسه. 248.

[45] - أحمد بن علي المنجور، فهرست ابن منجور (طبعة مغربية، المغرب، 1978م) /36.

[46] - أحمد بن علي المنجور، المصدر السابق. 62.

[47] - أحمد بن علي المنجور، المصدر نفسه. 65.

[48] - أحمد بن علي المنجور، المصدر نفسه. 68.

[49] - عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه. ج 42.

[50] - محمد بن محمد التونسي هاجر إلى الآستانة فالتقى بمفتيها الأستاذ أبو السعود المفسر، توفي بالقاهرة 947هـ المؤنس 163.

[51] - منشور الهداية. ج 42.

[52] - محمد بن علي الغزي، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (درا الكتب العلمية، لبنان، 1997م) ج 163/3.

[53] - أحمد بن علي المنجور، المصدر نفسه. 79.

[54] - أحمد بن علي المنجور، المصدر نفسه. 79.

[55] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (دار البصائر للنشر والتوزيع . الجزائر. ط:06، 2009م). ج 13/2.

[56] - عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه. 223.

[57] - عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه. 59.

[58] - عبد الكريم الفكون، المصدر نفسه. 59.

[59] - محمد خليل الحسيني، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر (دار البشائر الحسينية . لبنان . ب ت) ج252/1.

[60] - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه. ج 15/2-16.

[61] - خلاصة الأثر، المصدر نفسه. ج 226/2.

[62] - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه.. ج 15/2-16.

[63] - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه. ج 15/2-16.

[64] - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه. ج 14/2، أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 219/2.

[65] - أبو القاسم سعد الله، المرجع نفسه. ج 14/2، أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 219/2.

[66] - محمد المشرفي المعسكري، ياقوتة النسب الوهاجة (مخطوط خاص) لوحة / 34.

[67] - محمد المشرفي المعسكري، ياقوتة النسب الوهاجة (مخطوط خاص) لوحة / 34.

[68] - عبد الحق شرف، العربي بن عبد القادر بن علي المشرفي - حياته وآثاره - (منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف-الجزائر-2011م.) /76.

[69] - أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 99/2.

[70] - قاسم بن صالح بن إسماعيل بن بكر الدمشقي الشافعي، الشهير بالحلاق. فقيه، مفسر، محدث، ناظم، ناثر. ولد بدمشق، ونشأ، وتوفي بها (1284هـ/1867م). معجم المؤلفين 103/8، تراجم مشاهير فضلاء القرن الثالث عشر. 1/32.

[71] - أبو القاسم الحفناوي، المرجع نفسه. ج 99/2.

[72] - محمد الخضر حسين، أسرار التنزيل ضمن الأعمال الكاملة. ج122/11.

[73] - علي الرضا الحسيني، موسوعة الأعمال الكاملة (دار النوادر- سوريا - ط: 01، 2010م) ج 04/1.

[74] - محمد رزق الطرهوني، التفسير والمفسرون بغرب إفريقيا (دار ابن الجوزي . المملكة العربية السعودية . ط:01، 2006م) ج 223/1.

[75] - لجنة من المؤلفين، معجم أعلام الإباضية (دار الغرب الإسلامي بيروت . لبنان . ط: 02، 2000م) 09/2. وقد ذكر أصحاب المعجم في ترجمته أنه مكث بمعهد اطفيش خمس سنوات، وقد خصه القطب لنبوغه في غير الوقت العام للطلبة. وله **رسالة شروط المفسر** وهي رسالة مطولة. وحاشية على الدرر اللوامع في التجويد.

[76] - إشراف محمد ناصر، معجم أعلام الإباضية، المرجع السابق. ج 26/2.

[77] - إشراف محمد ناصر، معجم أعلام الإباضية، المرجع نفسه.ج 20/2.

[78] - إشراف محمد ناصر، معجم أعلام الإباضية، المرجع نفسه. ج 79/2.

[79] - إشراف محمد ناصر، معجم أعلام الإباضية، المرجع نفسه. ج 79/2.

[80] - ترجمة محمد الباي بلعالم، إعداد محمد علي الأمين الشنقيطي ضمن الرحلة العلية للباي المذكور(مطبعة دار هُومة - الجزائر- بدون تاريخ) (384/2).

[81] - محمد الباي بلعالم، الرحلة العلية. المرجع السابق. ج 388/2.

[82] - محمد رزق طرهوني، المرجع السابق. ج 202/1.

[83] - محمد رزق طرهوني، المرجع نفسه. ج 202/1.

[84] - التواتي بن التواتي، **الدر الثمين في تفسير الكتاب المبين** (مطبعة رويغي الأغواط _ الجزائر_ ط: 01، 2011م.). ج 24/1.